الفصل الثالث

الأدلة الشرعية والعقلية والعلمية على صحة نبوة محمد ﷺ

تصنيف الأدلة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية إن وصف دليل من الأدلة بأنه "عقلي" أو "سمعي": "يبين الطريق الذي عُلم به".

والدليل الشرعي: "قد يكون سمعيًّا (يعني: مأخوذًا من القرآن أو السنة)، وقد يكون عقليًّا؛ فإن كون الدليل شرعيًّا يُراد به: **كون الشرع أثبته ودَلَّ عليه**؛ **ويُراد به: كون الشرع أباحه وأذن فيه**. فإذا أريد بالشرعي ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا ولكن الشرع نبَّه عليه ودل عليه، فيكون شرعيًّا عقليًّا".

"وهكذا الأدلة التي نَبَّهَ الله تعالى عليها في كتابه العزيز – من الأمثال المضروبة وغيرها، الدالة على توحيده وصدق رسوله، وإثبات صفاته، وعلى المَعَاد. فتلك كلها أدلة عقلية يُعلم صحتها بالعقل، وهي براهين ومقاييس عقلية، وهي مع ذلك شرعية"[1] فإذا ورد دليل في الكتاب أو السُّنَّة فهو دليل شرعي، فإذا علمنا صحته بالعقل كان عقليًّا، إلى جانب كونه شرعيًّا.

وقد واجه محمد ﷺ كثيراً من عبدة الآلهة الوثنيين، وكان دليله على فساد تعدد الآلهة قول الله تعالى ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهذا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١ / ١٩٨، ١٩٩.

obeikandl.com

دليل شرعي لأن القرآن هو الطريق الذي عُلم به؛ لكنه أيضًا دليل عقلي لأن العقل البشري لا يمكن أن يتقبل تعدد الآلهة، لأن التعدد لا يمكن أن يفسر ظواهر النظام الكوني المذهل، وتكامل المخلوقات البشرية والحيوانية والمادية. وقد لفت القرآن أنظار الخلق إلى تأمل "الأنفس" و"الآفاق" لأنه يؤدي إلى الاقتناع بالتوحيد.

وإلى تصنيف الأدلة إلى: شرعية عقلية، أو عقلية شرعية، تضاف الأدلة الكونية والعلمية التي يمكن أن توصف بأنها شرعية وعقلية على أساس تصنيف ابن تيمية.

الأدلة في مجال العمل

ويقرر الإمام الغزالي أن الأدلة الشرعية في مجال العمل أربعة، هي: الكتاب والسُّنَّة والإجماع ودليل العقل.(١) هذا في مجال العمل أو الفقه.

ويقرر الإمام الشاطبي أن: "الأدلة الشرعية ضربان – أحدهما: ما يرجع إلى النقل المحض (أي إلى الكتاب والسنة)، والثاني: يرجع إلى الرأي المحض (أي العقل)"(٢) ويضيف أن: "كل واحد من الضربيْن مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لابد فيه من النظر (العقلي)، كما أن الرأي لا يعتبر شرعًا إلا إذا استند إلى النقل"(٣).

ويقول السيد محمد آل كاشف الغطاء: "المسلمون متفقون على أن أدلة الأحكام الشرعية منحصرة في الكتاب والسنة، ثم العقل والإجماع"(٤).

ويقول الإمام الشاطبي إن الاستدلال بالكتاب والسنة يتم بواسطة العقل البشري، وإلى هنا الكلام عن الأدلة في مجال العمل(٥).

---

(١) المستصفى؛ ص ١١٩.
(٢) الموافقات؛ ٣ / ٢٤.
(٣) نفسه
(٤) الشيخ محمد أبو زهرة؛ الإمام الصادق؛ الفقرة رقم ٢٢٤؛ ص ٢٨٨.
(٥) الموافقات؛ ٣ / ٢٥.

obeikandl.com

الأدلة في مجال الأصول

لكن الأدلة في مجال الأصول، وهو مجال هذه الدراسة، لابد أن تكون عقلية، أو كونية، لأن المخاطب غير مسلم؛ وتضاف الأدلة الشرعية إذا كان المخاطب مسلمًا. ولا يصح هنا الاستناد إلى الإجماع أو القياس كما هو الحال في مجال العمل.

وقد بينت الدراسة أن الأدلة أربعة أنواع:

١ – النوع الأول: يتضمنه القرآن نفسه، فهي أدلة شرعية وعقلية.

٢ – والنوع الثاني: تتضمنه السنة النبوية المطهرة، وهي أدلة شرعية وعقلية أيضًا.

٣ – والنوع الثالث: يتضمن الأدلة الكونية والعلمية.

٤ – والنوع الرابع: الدليل الأخلاقى الذى يعتمد على الثقة فى صدق النبى.

والأنواع الثلاثة الأولى تخاطب غير المسلمين، كما تخاطب المسلمين، لأنها لا تستند إلى الإيمان بالإسلام، بل إلى العقل وقواعده المنطقية.

والعقل هو أداة الإنسان لإدراك صدق الرسول أو عدمه.[١] وقد آمن بمحمد ﷺ مَنْ آمَن من العرب بعد مناقشات عقلية منطقية حادة، وكذَّبه من كذَّبه منهم بعد جدال طويل.

ومن البَدَهي أن يستند محمد ﷺ إلى العقل في دعوته، وأن يصير ذلك هو المنهج المعتبر لدى العلماء المسلمين على امتداد العصور، وإلى اليوم، مع التوكيد أن للعقل حدودًا يجب ألا يتعداها، وفي هذا يقول الإمام الشافعي: "إن للعقل حدًّا ينتهي إليه، كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه"[٢] وقد أكد "عمانويل كانط "kant الفيلسوف الألماني الكبير (١٧٢٤ – ١٨٠٤م) هذه الحقيقة في كتابه الشهير: "نقد العقل المحض"[٣] وبذلك انحصر العقل في مجال الحواس فقط.

---

(١) أبو زهرة؛ السابق؛ ص ٤٩٤، ٤٩٥. (٢) آداب الشافعي ومناقبه؛ ص ٢٧١.

(3) Critique of Pure reason; Eng Trans. By J. M.D. Meikeljohn; 1956; pp. 249 - 287

لكن كثيراً من الماديين المحدثين لا يعترفون بغير العقل والتجربة مصادر للمعرفة، وبذلك يكذِّبون محمداً وسائر الأنبياء، وينكرون الرسالات السماوية دون مناقشة، متبعين الفلاسفة الملحدين: دافيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٢م) وداروِن (١٨٠٩ – ١٨٨٢م) وماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣م)، وفرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩م)، وغيرهم.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين اكتشفت الإنسانية شيئًا فشيئًا تهافت الإلحاد بتأثير المعارف العلمية والكونية الواسعة الدقيقة التي أثبتت صدق الأنبياء، وصحة العقائد التي تؤكد وجود الإله الواحد الأحد الخالق المدبر لهذا الكون. واتخذت المشكلة صيغة أخرى خصوصاً في العالم الإسلامي، فقد عجز المفكرون ذوي النزعة المادية عن الدفاع عن الإلحاد وتكذيب الرسل، وخاصة محمد، وتظاهروا بالإيمان بالإسلام، وتصديق رسوله، لكنهم جعلوا الكلمة العليا للمعارف العقلية والتجريبية، وبذلك كذَّبوا كل ما جاء به محمد مما يتعارض معها، وثارت بسبب ذلك صدامات عديدة بينهم وبين المؤمنين بمحمد ورسالته وانقسمت الأمة المسلمة إلى فريقين: الأول يصدق محمداً ويلتزم برسالته كاملة، وفريق يقبل بعض ما جاء به وينكر معظمه. وانحاز الغربيون إلى المكذبين، ومكنوا لهم في قيادة الأمة، وقمع المصدِّقين المؤمنين.

واندلعت بين المكذبين والمصدقين خلافات طاحنة حول: المذاهب الفلسفية المادية، والتشريع الوضعي الذي حل محل الشريعة، وفوائد المصارف الربوية، والنظام الرئاسي العلماني الذي حل محل الخلافة، والوطنية منفصلة عن رابطة الأخوة الإسلامية، ونظام الميراث الشرعي الذي نبذوه في بعض الدول دون بعضها الآخر، وتحريم تعدد الزوجات، وإباحة شرب الخمر، وتحريم ختان الإناث ومصادرة الملكيات الخاصة، وقوامة الزوج، ومنع الخمار الشرعي في بعض البلاد، وغير ذلك من المسائل.

وفي كل هذه المسائل جعلوا كلمة العقل فوق كلمة الوحي الذي أرسل به محمد وادَّعى خالد محمد خالد أن الأئمة الأربعة لأهل السنة – أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد بن حنبل: "جعلوا من الرأي ومن حُكم العقل تشريعًا ومنهاجًا"(١) وهذا غير صحيح، بل إن المعتزلة الذين بالغوا في تقدير العقل لم يقولوا بذلك(٢).

---

(١) مثلاً: خالد محمد خالد؛ من هنا نبدأ؛ ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) راجع رسائل العدل والتوحيد؛ تحقيق الدكتور محمد عمارة؛ ص ١٠ .

أدلة تضمنها القرآن الكريم

دليل الإعجاز البياني في القرآن

وهو إعجاز القرآن، كتاب محمد الذي كان بمثابة الرد المفحم على الجاهليين الذين اتهموه بالكذب وبأنه افتراه على الله؛ قال القرآن ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾ [هود: ١٣، ١٤] وقال أيضًا ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣].

وعجز العرب والعجم، ومعهم الغربيون المعاصرون، في الإتيان بسورة واحدة مثل القرآن، حتى رصدت بعض الجهات الأمريكية جائزة كبيرة لمن يأتي بسورة، ونشرت ذلك على "النت"، دون جدوى.

وفي العصر الحديث زادت عناية المسلمين بالقرآن، مما أدى إلى ظهور ما يسمَّى بالإعجاز العلمي والكوني والأخلاقي، وهكذا اتسع نطاق الإعجاز لتأييد صدق محمد، ولم يستمع العلماء المسلمون للذين قالوا إن الإعجاز: "**إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، لا بشيء خارج عن ذلك**"(١).

والقرآن يأمر محمداً بأن يجادل المكذبين له، وأن يدعو إلى دينه، وقال ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥] وهذا يبين أن مواجهة المكذبين للنبي والدعوة إلى الإسلام لا تستند إلى

---

(١) مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية (المقدمة التي كتبها محمود شاكر).

obeikandl.com

الإعجاز اللغوي وحده، بل إليه وإلى الحكمة والموعظة الحسنة، وميدان الحكمة والموعظة الحسنة واسع جداً. وسيرة محمد تؤكد التزامه بهذه المبادئ في دعوته.

عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، وعلى الرغم من ذلك لم يصدِّق محمداً سوى عدد قليل من أهل مكة، **ولم يكن تصديقهم له بسبب الإعجاز البياني اللغوي للقرآن الذي جاء به، وإنما بسبب عقلانية التوحيد وسخْف الوثنية، وبسبب الثقة في شخص محمد، وعقلانية مبادئه الأخلاقية ورقيها؛ وأبو بكر المثال البارز لذلك.**

ولعل كلمات خديجة، زوج محمد، حين عاد إليها من غار حراء بعد اللقاء الأول مع جبريل تبين هذه الحقائق؛ فلم تقل له إن الآيات الأولى من سورة (العلق) فيها إعجاز بياني يؤكد صدق الرسول جبريل، وصدق محمد تبعًا لذلك، ولكنها أيقنت بصدقه استناداً إلى شمائله وأخلاقياته الرفيعة، وقالت: "كلا أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبداً! إنك لتصل الرحم وتصْدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتَقري الضيف وتعين على نوائب الحق" (١) فصاحب هذه الشمائل السامية لا يمكن أن يخزيه الله تعالى، هذا هو حكم العقل السليم.

وهذا عمر بن الخطاب يعثر على رقعة فيها بعض آيات من صدر سورة طه، فيتحول من العداء لمحمد ودينه إلى محب له، فبعد أن قرأ تلك الآيات يقول: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه". ويُذكر أن عمر قال في خبر آخر إنه سمع محمداً يتلو القرآن بجوار الكعبة... "فلما سمعتُ القرآن رقَّ له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام فلم أزل في مكاني ذلك (مختفيًا خلف أستار الكعبة) حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف"، وتابعه عمر إلى بيته وأعلن إسلامه (٢) فهذا من تأثير الإعجاز البياني.

---

(١) مسلم؛ ٢ / ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) سيرة ابن هشام؛ جـ ١ / ٢٩٤ - ٢٩٩ .

لكن أبا سفيان والأخْنس بن شريق، سمعا محمداً وهو يتلو القرآن فلم يتأثرا به، وقال أبو سفيان: "والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: "وأنا والذي حَلَفْتَ به"(١) أما أبو جهل فقد سأله الأخنس رأيه فلم يجِبْه، وراح يصور النبوة على أنها ادعاء كاذب من بني هاشم، قوم محمد، ليبزوا به سائر بطون قريش في الشرف والمجد(٢).

وفي عصرنا هذا **تبرز أهمية الأدلة العلمية والكونية** بسبب العجز عن تقدير الناس للإعجاز البياني اللغوي، من العرب وغير العرب بطبيعة الحال، وبسبب سيادة التفكير العلمي، خصوصًا لدى الغربيين، وفي هذا يقول مالك بن نبي: "والحق أنه لا يوجد مسلم، وبخاصة في البلاد غير العربية، يمكن أن يقارن موضوعيًّا بين آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفَّاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك – في أذواقنا – عبقرية اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة"(٣).

دليل البراءة من التناقض

يتسم القرآن الكريم بالسعة والتنوع في مضامينه، وقد تنزل منجمًا على امتداد ثلاث وعشرين سنة، في ظروف شديدة التباين، وهذه العوامل تضمن وجود تناقضات بين مضامينه المتنوعة، هذا لو كان مؤلفًا بشريًّا، لكنه برئ من التناقضات التي توجد عادة في مؤلفات البشر، ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢] وهذه الآية حرضت بعض أعداء الإسلام في القديم والحديث على البحث في القرآن للكشف عن تناقض ما.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٧٦.
(٢) نفسه؛ ص ٢٧٦.
(٣) الظاهرة القرآنية؛ ص ٥٨، ٥٩.

obeikandl.com

ومن الملفت للنظر أن هذه الآية جاءت بعد آيتين يُوهم ظاهرهما بوجود اختلاف أو تناقض، الآية الأولى رقم ٧٨ من السورة نفسها تقول ﴿ .... وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ فالصواب هو أن الحسنة والسيئة من عند الله تعالى، والآية التالية لها مباشرة تقول ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] فهذه العبارة الأخيرة تقرر أن ما أصاب الإنسان من سيئة فمن نفسه، بعكس ما قررته الآية الأولى.

والحق أن الحسنات والسيئات من عند الله تعالى، لكن السيئات عقوبات يصيب بها الله تعالى من يشاء من عباده جزاء آثام اقترفوها؛ فهذه الآثام هي السبب القريب لما يصيب العبد من أشياء تسوءه.

وكان ابن النغريلة – اليهودي – قد توهم في الآيتين وجود تناقض، ورد عليه ابن حزم بقوله: "إن الكفار كانوا يقولون إن الحسنات الواصلة إليهم هي من عند الله عز وجل، وأن السيئات المصيبة لهم في دنياهم هي من عند محمد ﷺ فأكذبهم الله تعالى في ذلك، وبين وجه ورود حسنات الدنيا وسيئاتها على كل من فيها بأن الحسنات السارة هي من عند الله تعالى بفضله على الناس، وأن كل سيئة يصيب الله بها إنسانًا في دنياه فمن قِبَل نفس المصاب بها، بما يجني على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى الذي لا يقوم به أحد ، وكل ذلك من عند الله تعالى جملة ، فأحد الوجهين – وهو الحسنات – فضل من الله تعالى مجرد لم يستحقه أحد على الله تعالى، إلا حين يفضِّل به عز وجل من أحسن إليه من عباده. والوجه الثاني – وهو السيئات – تأديب من الله تعالى أوجبه على المصاب بها تقصيرُه عما يلزمه من واجبات ربه تعالى"(١).

(١) ابن حزم؛ الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى؛ تحقيق إحسان عباس ؛ مكتبة دار العروبة بالقاهرة؛ سنة ١٣٨٠ ١٩٦٠ ص ٤٨ .

وهذا الجدال بين يهودي يعيش في بلاد يحكمها أمراء مسلمون وبين إمام كبير هو ابن حزم، يدل على التسامح الذي أتاح لذلك اليهودي محاولة الطعن في القرآن الكريم.

ولا ريب أن الرحابة العظيمة للقرآن ونزوله منجماً على امتداد ربع قرن، والبراءة الكاملة من التناقضات، لدليل قوي على أنه تنزيل من رب العالمين، وأن محمداً لم يكن يستطيع تأليفه بحال، يقول مالك بن نبي: "من المقطوع به أنه لو أتيح لأحد من الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق"(١).

دليل تصويبه لأخبار التوراة

إن معظم الأخبار والقصص والأنباء التي وردت في القرآن هي الأخبار والقصص والأنباء التي وردت في التوراة، ولكن مصححة. فكيف عرفها الرسول وهو لم يقرأ التوراة والإنجيل؟ وكيف صححها؟!

يقول الماتريدي في "تأويلات أهل السنة" – بعد أن يفسر آيات سورة البقرة التي أفاضت في إيراد أخبار بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام – ابتداء من الآية ٤٦ : "وفي هذه الآيات التي ذكرناها، والأنباء التي وصفناها، دلالة صدق محمد ﷺ، وإثبات نبوته، وذلك أن أهل الكتاب كانوا عرفوا هذه الأنباء بكتبهم؛ وكان رسول الله ﷺ يذكر ذلك بمشهدهم، كما في كتابهم؛ ولم يكن ظهر منه اختلافٌ (يعني: ذهاب) إليهم، ولا درس كتابهم؛ **فدل أنه بالله عرف**"(٢) وعلى الرغم من هذا قد يسأل سائل قائلاً من أين عرف رسول الله ﷺ هذه القصص؟!

---

(١) الظاهرة القرآنية؛ ص ٢٣٨ .

(٢) تأويلات أهل السنة؛ للماتريدي؛ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ص ١٦٢ تحقيق دكتور محمد مستفيض الرحمن ومراجعته؛ وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق؛ سنة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣م.

وقد يقال إنها قُصت عليه من شخص ما، في المدينة أو في مكة، وعلى الرغم من أن هذا القول إنما هو مجرد ظن هش لا سبيل إلى إثباته، إلاَّ أننا نفرض أنه ممكن. ولذلك ننتقل إلى السؤال الثاني الحاسم، وهو: كيف صحح الرسول ﷺ تلك القصص والأخبار؟ وكيف تجنب الأخبار الكثيرة الزائفة الواردة في التوراة والإنجيل؟!

هذا فضلاً عن أن أهل الكتاب في ذلك الزمان لم يتهموا النبي ﷺ بالاقتباس من كتبهم (إلا في العصر الحديث) فهذا دليل قوى على صدق نبوته ﷺ.

دليل التنبؤ

والتنبؤ بما سيقع في المستقبل دليل على صدق النبي ﷺ، وعلى سماوية القرآن الكريم، ومن أشهر النبوءات القرآنية تغلب الروم على الفرس، في بضع سنين، كما جاء في قوله تعالى ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ [الروم: ٢-٤].

وكان المسلمون يرجون أن ينتصر الروم على الفرس لأنهم أهل كتاب، والفرس أهل أوثان، وقد راهن أبو بكر أُبي بن خلف وأخاه أمية على انتصار الروم، وراهناه على انتصار الفرس، وقد انتصر الروم على الفرس في المدة التي اتفقوا عليها، ففرح المسلمون لأن ذلك دليل على نبوة محمد ﷺ (١).

وتحدث القرآن الكريم عن نبوءة أخرى مدهشة، بطلها رجل يُدعى الوليد ابن المغيرة الذي كان أحد زعماء المشركين في مكة، قال الله تعالى في حقه ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾ [القلم:١٦] وبعد سنوات من نزول هذه الآية، وقعت معركة بدر، وشارك فيها الوليد، وتلقى فيها ضربة على أنفه، تركت عليها علامة، فكان القوم يسخرون منه لذلك، وتلك نبوءة ودليل على صدق محمد وصحة نسبة القرآن الكريم إلى الله تعالى.

---

(١) راجع تفسير القرطبي؛ طبعة الشعب؛ ٦/ ٥٠٨٣ .

دليل الإخبار عن الغيب: أوضح آيات الرسالة

ويقول الماتريدي أيضاً إن الإخبار عن الوقائع التاريخية القديمة – مثل قصة بقرة بني إسرائيل – إنما هو إخبار عن الغيب، وذكر القصة – قصة البقرة – على الوجه الذي يُعلم (منه) أن الاختراع لا يبلغ ذلك، ليعلموا أنه – أي النبي – بالله عَلِمَ؛ إنه إذا لم يُذكر له خطٌّ كتاب، ولا اختلاف إلى مَنْ عنده (كتاب)؛ على أنه لو كان مسموعاً منهم – يعني: لو أن النبي سمع القصة منهم – ليجري على مثله القولُ بالزيادة والنقصان، ولكن مَنعهم الله تعالى عن ذلك، إذا علموا صدقه، إشفاقاً على أنفسهم أن ينزَّل عليهم نقمة[1] الله[2].

وقد نختلف عن الماتريدي في وصف الوقائع التاريخية بأنها "غيب"؛ والإخبار عنها بأنه "إخبار عن الغيب"؛ **لكننا لا نستطيع أن نفسر صحة هذه الأخبار في القرآن إلاّ بالتسليم بأنه منزل من عند الله**، وإلاّ فمن أين علم محمد ﷺ بهذه الوقائع والأخبار؟ هل عثر على وثائق تكشف عنها؟ أو: هل حدثت حفريات كشفت عن وثائق من أي نوع فدلته عليها؟!!

فدلالة القرآن على وقائع الماضي، لا تقل وزناً عن الإخبار عن الغيب، بوصفها قرينة حاسمة على نبوة محمد ﷺ، وبخاصة إذا علمنا أن البحوث التاريخية الحديثة تؤكد صحة ما جاء به القرآن، وتنقض ما يناقضه في كتب أهل الكتاب. (وهذا ما فصَّله بوكاى في كتابه).

دليل كمال القرآن ابتداءً

يقول ابن الوزير: نقلاً عن **الإمام المؤيد بالله**: "ومن الدليل على إعجاز القرآن أن النبي ﷺ ابتدأ الإتيان بهذا القرآن على غاية الإحكام والإتقان؛ وقد ثبت جريان

---

(١) في المطبوع "نعمة" – وهي خطأ.

(٢) تأويلات أهل السنة؛ ص ١٧١.

obeikandi.com

العادة أن كل أمر يقع على وجه لا يصح وقوعه عليه إلاّ بعلوم تحصل للفاعل له، لا يصح وقوعه ابتداءً على غاية الإحكام والإتقان؛ وان بلوغه الغاية يتعذر إلاّ على مر الدهور والأعصار، وتعاطي جماعة فجماعة له، وأنه لا فرق في ذلك بين شيء وشيء من الأمور: في منظوم الكلام ومنثوره، وما يتعلق بالتنجيم، **والطب**، **والفقه**، **والنحو**، **والصناعات**... **فإذا ثبت ذلك**، وثبت وقوع القرآن على الوجه الذي بيناه، ثبت أنه **وقع على وجه انتقضت به العادة**، فجرى مجرى قلب العصا حيَّة، وإحياء الموتى، والمشي على الماء والهواء.. فهذا أعظم الآيات لبقائه في أمة محمد ﷺ، وفناء آيات الأنبياء في أعصارهم، عليهم السلام، ولكن الله -لما علم أن النبوة قد انقطعت- **جعل هذا المعجز الجليل باقياً على مر الدهور**، جديداً على طول العصور" (١).

وبتحليل هذا النص نتبين ما يلي:

١ - **أن القرآن جاء كاملاً، ولم يسبق بتأليفات أخرى للرسول**، يتدرب فيها على التأليف، كما هو شأن المؤلفين العاديين، وهذا خرق للعادة أو القانون المعروف، فهو معجزة ودليل حاسم على ربانية القرآن!

٢ - **أن القرآن مجموعة علوم ناضجة**، والمفروض أن هذه العلوم لا تبلغ درجة النضج إلاّ بعد مراحل متعاقبة، وأجيال عديدة من الباحثين والعلماء، يُجَوِّدُ التالي منهم ما خلفه السابق، فلا يتم النضج إلاّ بعد توفر معلومات واسعة يرثها العالم الناضج الأخير، وهذا ما لم يحدث للنبي ﷺ.

٣ - أن هذا الخرق الإعجازي للسنة الكونية **معجزة باقية على مر الدهور**، لا معجزة وقتية، كإحياء الموتى لعيسى عليه السلام مثلاً؛ بل هي الآن أشد إبهاراً وإعجازاً منها على عهد رسول الله ﷺ لأن مضي هذا الزمن الطويل أكد إعجاز القرآن، وكذلك العلوم الحديثة أكدت ذلك كما سنرى.

---

(١) إيثار الحق على الخلق؛ ص ٧٧.

دليل خلو القرآن من هموم محمد الشخصية

ومن **المعروف أن آلام المؤلف - أي مؤلف - ومشاغله وهمومه وعلاقته الشخصية، لابد أن تظهر في مضمون مؤلفاته**. لكن القرآن يخلو من: "أي صدًى لآلام محمد، **وبخاصة عندما يفقد أكرم زوجة، وأفضل عم**، مع علمنا بما كان لديه من الحنو النبوي تجاه هاتين الشخصيتين"[1] **وكذلك مقتل عمه حمزة ابن عبد المطلب** وتمثيل المشركين بجثته ولوك هند زوج أبي سفيان كبده! ولا يقل عن ذلك إيلامًا موت ولده الرضيع إبراهيم، ومن قبله موت أولاده وبناته في حياته باستثناء فاطمة.

وكيف لمحمد أن يؤلف هذا الكتاب الضخم - أي القرآن - **دون أن يضع فيه بضعة أسطر يمتدح فيها أباه وأمه وزوجه الكريمة العزيزة خديجة بنت خويلد، رفيقته في الجهاد في فجر الدعوة؟!**

إن هذه الحقيقة - التي يسميها مالك بن نبي: انعدام الطابع الشخصي في الخطاب القرآني - تشهد بصدق محمد في قوله إنه يتلقى الوحي من عند الله تعالى، وليس فيه من تأليفه كلمة واحدة.

الدليل الاجتماعي

ويسوق الشيخ محمد عبده دليلاً آخر على صدق الرسول، وصدق الوحي، يمكننا أن نسميه **الدليل التطبيقي، أو الدليل الاجتماعي**؛ يقول رحمه الله: "والدليل على سلامة شهودهم (أي الأنبياء والرسل صلوات والله وسلامه عليهم)، وصحة ما يحدثون عنه: أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل قوة[2] في أممهم التي تأخذ بمقالهم؛ ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح عن معتل، ويستقيم النظام بمختل"[3].

---

(١) الظاهرة القرآنية؛ ص ١٩٦ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) في الأصل "بالقوة"؛ وهو تحريف، لأن الباء تلحق بالمتروك؛ والمتروك هنا هو الضعف لا القوة.

(٣) رسالة التوحيد؛ ص ١٥٥ .

وقد قمنا نحن بدراسة تكشف عن صلة العقيدة بالحياة الواقعية، وعن صلة الثقافة بها، وظواهر الإخفاق – أو النجاح – الإنساني الفردي والاجتماعي، ومدى ما يتحقق للفرد والجماعة من سعادة وكرامة وأمن، وهذا الجانب من دراستنا يشكل باباً جديداً ومهماً في علم التوحيد، وهو يفصل القول في "الدليل التطبيقي" أو "الاجتماعي" على صحة الوحي، وصدق رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، كما يثبت زيف الإلحاد وفساد الإنكار للوحي الإلهي(١).

ويقول رشيد رضا: " . . . فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سُنن الاجتماع البشري في تأثيره بالتبع لكونه آية **معجزة للبشر في لغته وأسلوبه**، كما كان آية معجزة في إصلاحه للأمم بهديه وتعليمه"(٢) فكتاب الله العزيز:

١ – معجزة لغوية

٢ – ومعجزة إصلاحية هادية معلمة.

ويشير الشيخ رضا إلى أهمية التغيير الباطني الداخلي النفسي وأسبقيته على التغيرات الأخرى، وهكذا أحدث القرآن: "ثورة تحرر العقل البشري والإرادة الإنسانية من رقِّ المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية، أو النيابة عن الرب الخالق سبحانه وتعالى في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم . . ."(٣).

وكان المنتظر أن يقدم لنا رشيد رضا عدداً من الشخصيات التي أحدث القرآن فيها انقلابه الشامل العظيم، وكذلك في المجتمع والأمة والإنسانية كلها، لكنه للأسف لم يفعل.

* * *

(١) انظر كتابي: «نقد الثقافة الإلحادية» دار هجر، سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م ص ٣٥ – ٤٣.
(٢) الوحي المحمدي؛ ص ١٤٨. (٣) نفسه؛ ص ١٤٦.

obeikandl.com

أدلَّة تضمنتها السُّنة

أخلاق محمد دليل صدقه: النوع الرابع من الأدلة

تكذيب محمد لدى الغربيين هو الأساس الذي تستند إليه سلسلة المطاعن والافتراءات التي يرددونها، فهل ثمة دليل على كذبه؟

الأدلة الموثقة في المصادر المعتبرة تؤكد أنه كان قمة في التزام الصدق، ومثلاً أعلى في تجسيد القيم الأخلاقية في حياته الشريفة، ونحن نعرض في إيجاز لتلك الأدلة.

وقد كان محمد ﷺ قبل البعثة يُسَّمى "الأمين". لأنه كان موضع ثقة الجميع، فكانوا يأتمنونه على أموالهم، فلا يجدون منه سوى الجدارة والوفاء. أجل، كان محمد يؤدي لأهل مكة وظيفة المصارف المحترمة التي تحفظ أموال الناس، ثم تقدمها لهم حين يطلبونها، ومعلوم أن الناس لم يكونوا يأتمنون محمداً على أموالهم إلا لثقتهم الكاملة فيه، ولو أنه أساء إلى أحد فيهم في ماله، لتبددت ثقة الجميع، وانصرفوا عنه، ولم يكونوا ليسموه "الأمين" بحال من الأحوال، والأمانة صفة أخلاقية رفيعة، وهي لا توجد منفصلة عن سائر الصفات الأخلاقية، فدل وجودها على وجود السلسلة الأخلاقية الكاملة.

وحين عاد إلى بيته بعد اللقاء الأول مع جبريل، وأخبر خديجة بما حدث، قالت: "أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالله لا يخزيك الله أبداً! فإنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقوي الضعيف، وتعين على نوائب الحق"(١) وكل

(١) فتح الباري؛ باب كيف كان بدء الوحي؛ جـ ١.

obeikandl.com

هذه الأعمال فضائل أخلاقية، لأنها "عطاءٌ بلا مقابل"، والعطاء بلا مقابل هو الخاصية الجوهرية للسلوك الأخلاقي بمعايير الإسلام (١).

وثقة أبي بكر الصديق في صدق محمد ﷺ دليل آخر على أن أخلاقيات محمد وعلى رأسها فضيلة الصدق هي التي جعلته يُسلم دون تردد، ودون جدال أو سؤال، وحين عاد النبي ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، وكذبه الكثيرون ولم يصدقوه، صدقه أبو بكر، وقال للذين هرولوا إليه متسائلين متشككين: "إن كان قال فقد صدق". أي أن صدق محمد كان هو الدليل الحاسم على صدق نبوته، وصدق كل ما يخبر به من أخبار السماء.

وأسلم خمسة من زعماء قريش بدعوة أبي بكر، ولم يكن بيده يومئذ أية براهين شرعية أو عقلية كافية لأولئك الرجال كي يتركوا دين آبائهم الموروث الراسخ ويدخلوا في دين جديد لا يعرفون عنه ألا أقل القليل، لقد كانت الثقة في صدق محمد وأمانته هي التي أقنعتهم بالإسلام.

أول أولئك الرجال عثمان بن عفان، أحد أثرى أثرياء مكة، والذي صار أحد الممولين الكبار للدولة المسلمة الوليدة، والخليفة الثالث بعد عمر، ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي قاد جيش المسلمين لفتح بلاد الإمبراطورية الفارسية، ومنهم الزبير الذي لم يتخلف عن أية غزوة غزاها رسول الله ﷺ (٢).

ولقد تصادف أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ابن النبي، فقال الناس إن الشمس كسفت حزناً على إبراهيم. وكان بوسع النبي ﷺ أن يوافقهم فيما ذهبوا إليه، ويتخذ المسألة وسيلة لتثبيت مكانته بينهم دون أن يخسر شيئاً، وكان من المستحيل أن يُكتشف كذبه، لكن النبي الصادق الأمين أَبَى أن يستفيد من الكذب

---

(١) راجع كتابي: الفضائل الخلقية في الإسلام؛ ص ٥٣.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٠، ٢٥١.

وقال للناس: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته"(١).

من المعلوم أن النبي ﷺ ظل يدعو إلى الإسلام سرًّا ثلاث سنوات، إلى أن أُمر بالجهر والعلانية بقول الله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء: ٢١٤] فصعد عليه الصلاة والسلام الصفا، وهتف: "يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فقال: يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني مناف!" فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقي؟" قالوا ماجربنا عليك كذباً، قال فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد!" فقال أبو لهب: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام"(٢) وتفرق القوم دون أن يتيحوا الفرصة للنبي ليحدثهم عن الإسلام، وكان فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب.

وفي رواية أخرى أنه قال لهم: "إني أدعوكم إلى الله وأنذركم عذابه"(٣).

وفي اعتقادي أن **هذه الروايات غير كاملة**، لأن عادة النبي في الدعوة إلى الإسلام أن يبدأ **بتلاوة القرآن**، وخصوصاً أولئك الذين يسمعون عن الدين الجديد لأول مرة، والأرجح أنه رغَّبهم في عبادة الله الواحد الأحد، وفي ثوابه العظيم، ثم اختتم كلامه بالإنذار بالعذاب، وأستبعد أن يبدأ بالإنذار والوعيد، ثم يتفرقون عنه بدون جدال!

والشاهد هنا هو اعترافهم بصدقه، وكان من المنطقي أن يصدقوه فيما دعاهم إليه، كما فعل أبو بكر والمجموعة الأولى الرائدة، لكن الله تعالى لم يشأ أن يكونوا من الرواد الأوائل، وأن يتأخروا قليلاً أو كثيراً، ومن الغريب أنهم تفرقوا دون أن ينكروا عليه شيئاً أو يعارضوه أو يسبُّوه!

---

(١) فتح الباري؛ كتاب الكسوف؛ رقم ١٠٥٧ - باب ١٣ - ٢ / ٥٤٥ وأخرجه مسلم في صحيحه؛ ٦/ ٢٠٠.

(٢) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك؛ ١/ ١١٧٠ - ٢ / ٣١٩.

(٣) نفسه؛ ص ٣٢٢.

وأراد بعض يهود المدينة إحراج النبي ﷺ، ودفعه إلى الكذب وإظهار ذلك على الناس كيلا يصدقوه، من ذلك أنهم سألوه: **متى تقوم الساعة؟** وكان بوسع النبي أن يقول – مثلاً – إنها ستقوم بعد ألف عام أو أقل أو أكثر، ولم يكن بيد اليهود شيء يثبت كذبه، وكانت فرصة للنبي لكي يبين للناس أنه نبي يعرف متى تقوم الساعة!

لكن محمداً ﷺ لم يكن ليكذب بأي حال من الأحوال، ومهما كانت فائدة الكذب، ومهما كان في مأمن من انكشاف كذبه، وقد أجاب القرآن الكريم على السؤال فقال تعالى ﴿**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ [الأعراف:١٨٧] وكان هذا هو الجواب عن ذلك السؤال في كل مرة طُرح عليه من اليهود أو النصارى أو العرب.

وهذا دليل صدق محمد ﷺ في نبوته، وكذب الذين اتهموه بأنه كان ينقل عن التوراة، فلماذا لم ينقل جوابهم عن ذلك السؤال؟ ويثبت العلم الحديث أخطاء التوراة في كثير مما ورد فيها على الخَلْق والعالم والإنسان (١).

والعقل لا يسيغ الزعم بأن محمداً ﷺ كان يكذب على الله تعالى، في حين كان يرفض أن يكذب على بعض اليهود! فهذا دليل مقنع، وإذا ضممناه إلى ما سبق من أدلة الصدق، فلا أحد يمكن أن يرفضه دون أن يقع في تناقض شنيع!

ورسالة محمد ﷺ تحرم الكذب تحريماً باتًّا، فليس في القرآن الكريم آية واحدة تجيز الكذب أو الافتراء أو البهتان أو النفاق أو القذف، أو أية صورة من صور الكذب. وفي أحاديث محمد ﷺ نصوص عديدة تشدد على واجب الالتزام بالصدق، وتحري الحقائق قبل إذاعتها، حتى الحيوان، أوجب محمد ﷺ الصدق معه واستنكر خداعه!

قال ﷺ: "لا تدخل حلاوة الإيمان قلب امرئ حتى يترك بعض الحديث خوف

---

(١) موريس بوكاي! القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، والعلم؛ ص ١٥٧.

الكذب، وإن كان صادقاً، ويترك المراء وإن كان محقًّا". وفسَّر ﷺ قول الله تعالى﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥] على أنه يقرر استحالة أن يجتمع الكذب مع الإيمان، وفي حديث آخر قال ﷺ: "إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يَعِدَ الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلى البر..." وقد التزم ﷺ بالصدق التزاماً صارماً، وقال: "إني لأَمزحُ ولا أقول إلا حقًّا".

وسبب الأهمية البالغة للصدق أنه الضمان لإبلاغ الحقائق إلى الآخرين.

ولقد عرَّف الإسلاميون الصدق، فقال القشيري إن الصدق هو: "موافقة السر المنطق" وفصَّل هذا التعريف قليلاً فقال: " أقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله"(١) وأشاد رسول الله ﷺ بقول الصدق في مواجهة عتاة الكذابين فقال: "إن من أفضل الأعمال كلمة حق تُقال عند سلطان جائر"(٢).

ويقول ابن الوزير: "إن أحداً ما سمع منه ﷺ كذباً، لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهَد أعداؤه في نشره وإظهاره"(٣).

فماذا يمكن أن يقول أي باحث منصف في اتهام غير المسلمين لمحمد بأنه كذاب، وأنه دَعيٌّ وليس بنبي، بعد هذا الذي أوردناه من سيرته الشريفة؟

في تقديري إنه لابد أن يقول: إن اتهامهم له بالكذب ليس سوى افتراء يناقض كل الأدلة، ولسوف نرى أن بقية الأدلة تؤكد صدق محمد وصحة نبوته.

---

(١) الرسالة القشيرية؛ ٢ / ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
(٢) أدب الدنيا والدين؛ ص ٧٨ .
(٣) إيثار الحق على الخلق؛ ص ٧٩ .

برهان "القهر"

يقول مالك بن نبي إن الرسالة الدينية فرضت فرضًا على الأنبياء: "فيونس، وأرمياء، ومحمد – عليه الصلاة والسلام – أفراد أرادوا – أولاً أن يتملصوا طواعيةً من دعوة النبوة، فقاوموا؛ ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرًا، فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم، وتتسلط على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية"(١).

ثم ينقل "مالك بن نبي" عن "أرمياء" قوله "لقد صرتُ محور سخرية طيلة النهار، فالجميع يهزأ بي، لأني كلما تكلمت وجدتُني مضطرًا لأن أصرخ وأعلن الجبروت والخراب، لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عارٍ واستهزاء مستمر؛ فإذا قلتُ: لم أعد أذكره (يعني سأكف عن الدعوة)، وأتكلم باسمه، وجدت في قلبي (شيئًا) كالنار المضطرمة المستكنة في عظامي، فأحاول أن أطفئها، ولكني لا أستطيع"(٢).

وكذلك كان رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ مأمورًا بالدعوة صراحة، كواجب ديني فرضه الله تعالى عليه بقوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾[المدثر: ١-٧]

وكان النبي محمد ﷺ يعاني شدةً حين نزول الوحي، ويربد وجهه، ولم يكن له إرادة في ذلك(٣).

ولم يتطلع النبي ﷺ مطلقًا إلى أن يكون نبيًّا، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال تعالى ﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ [القصص: ٨٦]

---

(١) الظاهرة القرآنية؛ ص ٩٩، ١٠٠.
(٢) نفسه؛ ص ١٠٢.
(٣) هذا ما جاء في وصف عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ولقد عانى النبي ﷺ عناءً مريراً من الشائعات التي أطلقها أعداؤه والمعروفة باسم "حديث الإفك" حيث اتهموا زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها بالخيانة الزوجية، واستمرت آلام النبي وزوجته وصهره والمسلمون جميعًا لمدة شهر كامل إلى أن تنزل الوحي ببراءتها، ولو كان محمد هو الذي يؤلف القرآن بحسب إرادته لما انتظر شهراً كاملاً؛ كان بوسعه أن يقول إن الوحي نزل ببراءتها عند أول ظهور للشائعات وانتهى الأمر، فنزول الوحي وانقطاعه لم يكن بإرادته، وهذا يثبت أن القرآن وحي منزَّل من عند الله تعالى.

وقد اشتد الخلاف بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولَاحَ للجميع خطر تعرضه للقتل، وكان الإسراع بالهجرة هو المخرج من ذلك الخطر، لكن النبي أذن للمسلمين أن يهاجروا، وظل هو في مكة، وصار بلا أنصار إلا قليلاً، إلى أن جاءه الإذن من عند الله تعالى، ولو كان محمد هو الذي يؤلف القرآن لكان هو أول المهاجرين، طلبًا للأمان لنفسه، ثم لمن شاء من أصحابه أن يتبعه إلى يثرب.

لا إرادة لمحمد في إنزال القرآن وعدمه

ومن الأدلة على أن القرآن من عند الله أنه كان يتنزل عليه دون إرادته، وكان ينقطع عنه وهو يريده، وفي هذا يقول الله عز وجل ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾

[يونس: ١٥، ١٦]

وفسرها القرطبي فقال إن المشركين سألوا النبي ﷺ أن يحول الوعيد وعداً والوعد وعيداً والحلال حراماً، والحرام حلالاً، وسألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، كذلك سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور.

ورفض النبي ﷺ هذه المطالب السخيفة، وأمره الله تعالى أن يذكرهم بأنه لا يستطيع أن يبدله من تلقاء نفسه، فهو يتلقى الوحي ويبلغه ولا إرادة له في ذلك.

وكان أهل الطائف قد طلبوا من النبي ﷺ أن يؤلف لهم آية تقول إن بلادهم محرمة مثل مكة المكرمة! وأمضى بعض المشركين العرب ليالي طويلة في إلحاح متواصل لدى النبي ﷺ لكي يؤلف لهم قرآنًا على هواهم! وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

ولو كان محمد هو مؤلف القرآن لكان استجاب لبعض مطالب الجاهليين، وبذلك يكسب تأييدهم الذي كان في أَمَسِّ الحاجة إليه ويتحاشى عداءهم وسخطهم عليه.

ومعلوم **أن الوحي فَتُر مدة**، وانقطع جبريل عن النزول، وحزن النبي لذلك حزنًا شديداً، ولو كان هو مؤلف القرآن لما حدث شيء من ذلك على الإطلاق، وظل النبي على حزنه الشديد مدة إلى أن جاء جبريل بسورة الضحى التي تنفي أن يكون الله تعالى قد كره محمداً وتركه! فقال عز وجل ﴿ **وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ [الضحى: ١-٥] وفرح النبي بها فرحًا عظيمًا، فلا إرادة لمحمد في انقطاع الوحي ونزوله، لأنه يتنزل بإرادة الله تعالى.

ويؤكد القرآن الكريم أن ما يتنزل به الوحي ليس شعراً ولا كهانة ولكنه تنزيل من رب العالمين، ويبين العقوبة الكبرى لمن يكذب على الله ويتقول عليه؛ فيقول سبحانه وتعالى ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ**

﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٦] فهذا وعيد شديد جدًّا لمن يتقول على الله تعالى، ولا يمكن تخيل دَعِيٍّ نبوة يقول هذا الكلام.

ومن الصعب على الغربيين فهم هذه الحقيقة، لأنهم لم يجدوا حرجًا في إسقاط بعض النصوص في التراجم الحديثة للكتاب المقدس، فيقرر الباحث القدير أحمد عبد الوهاب أن تراجم الكتاب المقدس تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا: "لا يقتصر فقط على تغيير الألفاظ الحاكمة، ولكنه يتعدى ذلك إلى النصوص ذاتها، حيث إن بعض التراجم الحديثة تسقط بعض النصوص التي ذكرت في تراجم سابقة"(١) كذلك أسقطوا عددًا كبيرًا من الأناجيل ولم يستبقوا غير أربعة (٢).

ولهذا لا يجد الغربيون حرجًا في مطالبة المسلمين بحذف بعض آيات القرآن الكريم التي لا تعجبهم!

دليل عُقم الترهيب والترغيب

وهذا دليل آخر له قوته الإقناعية بصدق محمد ﷺ. فإن قريشًا: "اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ، ومن أسلم معه منهم، فَأَغْرَوْا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مُظهر لأمر الله لا يستخفي به، مبادٍ لهم بما يكرهون، من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم"(٣).

---

(١) أحمد عبد الوهاب؛ المسيح في مصادر العقائد المسيحية؛ نشر مكتبة وهبة؛ القاهرة؛ ط ١ سنة ١٣٩٨ - ١٩٧٨م.
(٢) نفسه؛ ص ٢٠.
(٣) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٨.

obeikandl.com

وجاء في خبر طويل عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن قريشًا كادت أن تفتك بالرسول ﷺ، إذ أنهم هاجموه في المسجد! وتدخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ومنعهم من أذيته وهو يصرخ في وجوههم بقوله: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربِّيَ الله؟"(١) ورجع أبو بكر يومئذ إلى داره: "وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه بلحيته! وكان رجلاً كثير الشعر.

وهكذا فقد محمد، الرجل الشريف الأمين، مكانته بين قومه، وصار هدفًا مستباحًا لاعتداءاتهم اليومية! لم يعد للاحترام والتبجيل الذي كان يناله من قريش أي أثر، بل انقلب إلى استخفاف واستهانة!

ويقول ابن هشام إن: "أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يومًا فلم يلْقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه – لا حر ولا عبد! فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر: ١-٢] ومن الجلي أن في هاتين الآيتين توجيهًا ومآزرة وأملاً، وفيهما أيضًا ملاطفة وتسلية وتأنيس.

وقد سئل ابن عباس: "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذَرون به في ترك دينهم؟ قال نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: أللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم! حتى إن الجُعل (الجعران) ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول نعم! افتداءً منهم بما يبلغون من جَهد"(٢).

وبهذه النتيجة كان المشركون يسعدون أشد السعادة، ظانين أن ارتداد المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٧٩.

عن دينهم سيضطر محمداً في نهاية المطاف إلى التوقف عن الدعوة إلى الدين الجديد، وإلى عودة الذين صبأوا – أي أسلموا – إلى الشرك وعبادة الأوثان! لكنهم كانوا واهمين مخدوعين، لأن ما كانوا يُجبرون المسلمين على النطق به من شركيات ليس سوى ألفاظ أكرهوا عليها، وقلوبهم عامرة بالإيمان، وقد قال لهم رسول الله إن ذلك مغفور لهم، وأباح لهم التلفظ بالشرك وقال لعمار بن ياسر: "إن عادوا فعد!" وأنزل الله تعالى قوله ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النحل: ١٠٦].

وهكذا ثبت عُقم الترهيب والتعذيب، ولم يثن النبي ولا أحداً من أصحابه عن دينهم أو عن الدعوة له، وبرهنت المحنة عن عزائم صُلبة، وإرادة فولاذية لدى المسلمين، حتى لقد هلك بعضهم من وطأة العذاب.

المقاطعة

ولجأت قريش إلى سلاح المقاطعة، فقرروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني المطلب على ألاَّ ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم"[١] وأقاموا على ذلك سنتين حتى جهدوا (يعني أرهقوا بني المطلب).

وكان أبو جهل يراقب الشِّعب (أو الحي) الذي كان يقطنه بنو المطلب، وذات يوم لقي غلاماً لحكيم بن حزام يحمل كمية من البُر إلى عمته خديجة، زوج النبي ﷺ، فحاول منعه، وتدخل أبو البختري بن هشام بن الحارث، فاندلعت معركة، انتهت إلى إصابة أبي جهل بجرح، حيث آذاه أبو البختري أذًى شديداً[٢].

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣.

(٢) نفسه؛ ٢ / ٤.

الإسفـاف !

وتدنت قريش في عدائها للنبي إلى أسفل سافلين، من ذلك أن عقبة بن معيط كان يجالس الرسول ﷺ، واستاء من ذلك أُبي بن خلف، فأنب عقبة واستحلفه أن يتفُل في وجه النبي ﷺ! "ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي مُعيط"(١) حتى اسم النبي ﷺ حرفوه فقالوا: مذمم!! فقال رسول الله ﷺ: "ألا تعجبون لِما صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبون مذمّمًا وأنا محمد!"(٢).

وعلى الرغم من كل هذه المتاعب الأليمة والمهينة المتواصلة، ظل النبي ﷺ والمسلمون معه على الثبات على الإسلام، وهذا هو المسلك الطبيعي لنبي عظيم، لا لدعي كاذب، دون أن يهتز إيمانهم بالله ورسوله.

وقصة بني مخزوم مع عمار بن ياسر وأبيه وأمه (سمية) قصة بشعة من العذاب الأليم، وقد قتلوا تلك المرأة المؤمنة الشجاعة لإصرارها على الإسلام، ويروى أن رسول الله ﷺ كان يمر بذلك المشهد الرهيب فلا يملك إلا أن يقول: "صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة"(٣) وقصة أخرى لا تقل وحشية كان المجرمون فيها نفر من بني جُمح، والضحية البائسة بلال بن رباح رضى الله عنه.

والآن لابد أن نتساءل: هل بوسع دَعيٍّ كاذب أن يصمد لكل ذلك العذاب دون أن يتراجع قيد أنملة؟

وهل بوسع نبي كاذب أن يبث في أتباعه تلك الإرادة الفولاذية التي لا تلين حتى لو أضرموا في صاحبها النيران؟

ذلك ما تأباه الحقائق المعروفة عن طبيعة الإنسان، فلا يبقى إلا الاعتراف

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ١٠.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٦.
(٣) نفسه؛ ١ / ٣٢٠.

obeikandl.com

بصدق الدعوة والداعية ﷺ، وغير هذا عناد ومكابرة لا يرتضيها لنفسه إنسان متحضر، تواق إلى امتلاك الحقائق.

وكان القرآن يتنزل بالآيات لدعم تلك الإرادة النبيلة، فقال تعالى ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وأدان القرآن أولئك المشركين الظلمة فقال ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨] وقال أيضاً ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٣٤] فهذا إذاً قانون مطرد، صدق على الرسل السابقين، وسوف يصدق عليك يا محمد وعلى أتباعك، وقد صَدَقَ، وجاء نصر الله في يوم بدر، وتم فتح مكة، وانتصر أولئك الرجال الذين كانوا مستضعفين على الطغاة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب.

ولما لم يؤت الترهيب أية نتيجة أرادها المشركون، فكروا في الترغيب والغواية، فذهبوا إلى أبي طالب وفاوضوه وهددوه كي يوقف ابن أخيه عن دعوته، وتحدث أبو طالب إلى النبي ﷺ، ولم يتفقوا على شيء، وقال أبو طالب للنبي: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً، وكان النبي قد طلب منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويخلعوا ما كانوا يعبدون من دونه، فَأبوْا. فقال رسول الله ﷺ لعمه: "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

وهكذا أخفق الترغيب كما أخفق الترهيب.

وكان زعماء المشركين قد أرسلوا عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليفاوضه. وذهب الرجل إلى النبي وكلّمه فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك

علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا.."[1] ورد عليه النبي بأن قرأ صدر سورة فصلت، وعاد عتبة إلى المشركين، ونصحهم بأن يخلوا بينه وبين ما هو فيه، لكنهم رفضوا[2] وواصلوا كل الأساليب الممكنة، ترهيباً وترغيباً، لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً.

الثقة في النصر بعون الله

ومن الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ الثقة المطلقة في نصر الله له، ومن أبرز الأمثلة على ذلك وقوفه في وجه هوازن وقوتها المقاتلة الضخمة التي لم يواجه المسلمون مثلها قبل ذلك، وفي هذا يقول محمد فريد وجدي: "إن هذا فوق طاقة البشر، ولا يمكن تعليله إلا بثقته المطلقة في حفظ الله [3] له كما وعده بذلك في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكان المسلمون قد هربوا من المعركة وتركوا النبي ﷺ ومعه قلة قليلة من الرجال، ثم عادوا إلى المعركة حين وجدوا النبي يقف صامداً في وجه الأعداء.

ويقول الإمام المودودي في هذا: إن أعظم دليل على صدق محمد في دعوته هو: ثباته وتصميمه، وإرادته الفولاذية في المضي في الدعوة حتى النصر النهائي[4].

الإيمان الراسخ بنبوة محمد

وقال الأستاذ محمد فريد وجدي: "إن الله قد أمدَّ جماعة المسلمين الأولين من طريق الإعجاز بإيمان راسخ بنبوة محمد ﷺ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية، ونقش في صميم روعهم من الأصول الأدبية والمبادئ الاجتماعية والمثل العليا، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة في آماد طويلة"[5] وهكذا نشأت الأمة الإسلامية التي أحدثت تغيرات هائلة في العالم، وهو ما كان محتاجاً إليها.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٩٣.
(٢) نفسه؛ ١ / ٢٩٤.
(٣) السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة؛ ص ٢٨٠.
(4)Towards Understanding Islam; p 47
(٥) السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة؛ ص ١٩٩.

obeikandl.com